من تراثنا النقدى :

أسامة بن منقذ ناقداً

٤٨٨ ــ ٥٨٤ هـ

١٠٩٥ ــ ١١٨٨ م

دكتور / محمود جمعة أمين

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الاسلامية والعربية

للبنات بسوهاج

من تراثنـــا النقـــدى

أســـامة بـــن منقـــذ .. ناقـــداً

ـ ١ ـ

تمهيـــد :

لدراســـة شخصية من الشخصيات الأدبيـــة لتفهـــم اتجاهاتها أو الوقوف على آثارهـــا والتعـــرف على نتاجهـــا ، ومـــدى تأثرها بغيرهـــا وتأثيرها فى غيرهـــا يجب الوقوف على كـــل ما كتب عنهـــا ، ومعـــرفة المؤثرات التى أثرت فى تكـــوين فكرهـــا .

وقـــد رأيت قبـــل الحديث عن « التيـــار النقـــدى عند أســـامة ابن منقـــذ » أن ألقى الضـــوء ـــ فى عجالة وجيـــزة ـــ على حيـــاته لنتعـــرف على شخصيته وفـــكره النقـــدى وثقافته ومؤلفاته خاصـــة ما يتصـــل منهـــا بالناحية الأدبيـــة والنقـــدية حتى تكـــون الفـــائدة أتـــم وأنفـــع والاحـــاطة بالموضوع أعـــم وأوســـع .

وأبـــدأ البحث وعـــلى اللـــه قصـــد السبيل ومنـــه أســـتمد العـــون والتوفيق ..

— ٢ —

حيـاة ابن منقـذ وشخصيته

١ ــ مولـده :

فى يـوم الأحـد السابع والعشرين من جمادى الآخـرة سـنة ثمـان وثمانين وأربعمائة هجـرية « ٢٧ من جمادى الآخـرة سـنة ٤٨٨ هـ » ولـد أسـامة بن مرشـد بن سـديد المـلك على بن منقـذ الكنـانى(١) فى امـارة « شـيزر » وهى مدينـة تقـع فى الشمال الغـربى لـ « حمـاة »(٢) تبعـد عنهـا خمسة عشـر ميـلا على هضـبة يحيط بهـا نهـر العـاصى من جهـات ثلاث وبهـا قلعـة شامخة حصينة كانت مطمـع الطامعين من أمـراء المسلمين والصليبيين لمركزها الحـربى الحصين وقـد وصفها ابن الأثـير فقال : « هـذا الحصـن قريب من حمـاة وهـو على جبـل عـال منيـع لا يسلك اليه الا من طـريق واحـدة »(٣) .

٢ ــ أسـرته ونشـأته :

توارثت أسـرته امـارة « شـيزر » فكانوا حكامها ، وكـان

---

(١) راجـع ترجمته فى : دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص٢٣٠ ، وفيـات الأعيان ، ج١ ص٦٣ ، تاريخ الاسلام للذهبى ج ١ص٤٨ ، معجـم الأدبـاء ج ٥ ص١٨٨ ص١٩٤ وذكـر ياقوت ان العمـاد الأصفهانى ترجم لـه فى خريدة القصـر وابن المستوفى فى تاريـخ اربـل ، والسمعانى فى الأنسـاب ، كمـا ترجـم لـه أبـو شـامة فى الروضتين ج ١ ص٢٣١ .

(٢) معجـم الأدبـاء لياقوت ج ٥ ص١٩١ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثـير ج ١١ ص٢١٩ .

من أبرزهم « أبو العساكر سلطان » عم أسامة ، ولم يكن له عقب فاتخذ أسامة ابناً له وكان يرى فيه أمير المستقبل لشيزر ووارث الملك من بعده فكان يكلفه من الأمور ما يتطلب شجاعة وجرأة(٤) .

وكان أسامة قد نشأ بين والد صالح يقضى وقته فى تلاوة القرآن ورياضة الصيد بالنهار ونسخ كتاب الله بالليل . ووالدة شهرت بالشجاعة والنخوة والاقدام وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار ويركب الصعب من الأمور فلا ينهاه عن أن يمضى الى حية يحز رأسها ويلقى بها فى الدار ميتة وهو ثابت رابط الجأش ولا يحول شىء بينه وبين مصارعة الأسود وقتل ما يصرعه منها(٥) ، فشب جريئاً لا يهاب الموت ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه فى رياضته المفضلة عنده وهى الصيد لذا لم يكن عجيبا من أسامة أن يشترك فى المعارك الحربية التى دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعا عن مدينتهم وأن يحرز نصرا على أعدائهم .

٣ ــ ثقافته :

تلقى أسامة ثقافته من الثقافات التى كان يتلقاها أبناء

---

(٤) وظل الامر بينهما فيه تماسك وقوة ارتباط ولكن ما ان توفى والد اسامة سنة ٥٣١ هـ حتى قلب اخوه لأولاده « اسامة واخوته » ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم وأخرجهم من شيزر فتفرقوا « الكامل ج ١١ ص٢٢٠ » .

(٥) مقدمة ديوان اسامة بن منقذ . د. احمد احمد بدوى ص٥ بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣ م .

الأمـراء فى عصـره ، فدرس الحـديث والفقـه والأدب والنحـو واللغـة وحفـظ الكثـير من الشـعر وأخـذ من ذلك بنصيب موفـور يشهد لـه بـه كتبه وما ضمت من أحـاديث كثـيرة متنوعة الأغراض ومن مأثـور كـلام البلغـاء من المتقدمين وما استشهد بـه من شعر ونثـر ، وما اقتبسه من شـعر السابقين وما أورده فى شـعره من ألفـاظ لغـوية استعملت فى معانيهـا الدقيقة ممـا لـم يكن يجـرى لا على أقـلام كبـار البلغـاء ، أخـذ ذلك عن كبـار الأسـاتذة كمـا كانت البيئـة التى عـاش فيهـا بيئـة أدبيـة ممتـازة • فقد كـان الأمـراء من بنى منقـذ يقصدهم الشعراء والأدبـاء مادحين ، كمـا أنهـم كانوا هـم علمـاء شعراء وكـان أسـامة يحفظ كثيرا من أشـعار أبيـه وأعمامه وجـده(٦) •

٤ ــ مؤلفـــاته :

تـرك أسـامة عـدة كتـب يعنينـا منهـا ما يتصـل بالأدب ونقـده ، وهى :

١ ــ « كتـاب لبـاب الآداب » • نشـره الأستاذ أحمد محمد شـاكر • وقـد رتبـه أسـامة على سبعة فصـول ، وذكـر فيـه كثـيرا من محاسن الشـعر الموجـز البليـغ الدال على مكارم الأخلاق وقطعـا لأغراض مختلفة من الشـعر ، وقـد نهـج فيـه منهـج سلفه من الأبـواب •

والكتـاب يـدل على اطـلاع واسـع وذوق دقيق فى الاختيار •

---

(٦) انظـر معجـم الادباء ج ٥ ص١٩١ ــ ص٢٤٥ •

٢ ـ « كتاب العصا » ، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا ، وأثبت فيه أيضا كثيرا من شعره .

٣ ـ « البديع فى نقد الشعر » ، نشرته وطبعته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى وقام بتحقيقه الدكتوران أحمد أحمد بدوى ، وحامد عبد المجيد ومراجعة الأستاذ ابراهيم مصطفى .

وقد جمع فيه ما تفرق فى كتب العلماء المتقدمين المصنفة فى نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه ، وسأعرض لهذا الكتاب كثيرا فى ثنايا هذا البحث ان شاء الله .

٤ ـ « كتاب المنازل والديار » ، قالت عنه دائرة المعارف الاسلامية : انه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ أثناء اقامته فى حصن (كيفا) والدافع له على كتابته زلزال ٥٥٢ هـ أغسطس ١١٥٧ م(٧) . والكتاب يتضمن شواهد شعرية كثيرة مما صدر من الشعر عن المنازل والأطلال والديار والربع والدمن والرسوم والآثار . ألفه عزاء لنفسه وتأساء لقلبه حين عاد الى بلده بعد رحلة بعيدة فوجدها رسوما عافية وأطلالا بالية ومنازل خاوية بعد هذا الزلزال المروع الأليم(٨) . تذكر المراجع

---

(٧) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٣ ص٢٣١ ، طبع الشعب ، اعداد وتحرير الأستاذ ابراهيم زكى خورشيد وآخرين .

(٨) انظر مقدمة الكتاب لأسامة ص٣ ، ص٤ ، طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٦٨ ، تحقيق الأستاذ مصطفى حجازى .

التاريخية أن عـم أسـامة (تاج الدولة أبو العساكر سلطان بن على) قـد أولم فى ذلك اليـوم وليمـة دعـا اليهـا جميع أسرته ليشهدوا ختان أحـد أولاده وفى أثنائها وقـع الزلزال فقضى عليهم جميعا ولـم ينـج منهـم الا زوجـة تـاج الدين وحدهـا .

وكـان أسـامة حينذاك بعيـدا عن « شـيزر » فسـلم من المـوت(٩) ، ولكنـه لـم يسـلم من الأسى والحسرة اللذين أعقبتهما هـذه الفاجعة التى أودت بأسرته وتركت فى نفسـه أثـرا عميقـا نحسـه فى الكتـاب اذ حشـد فيـه أسـامة أحـزان من سـبقوه من الشعراء الذين بكـوا ديارهم ورسومها كمـا تحـزن أسـاه فى قـولـه :

لـم يترك الدهر لى من بعد فقدهـم
قلبـا أجشمه صـبرا وسـلوانا

فـلو رأونى لقالوا : مـات أسعدنا
وعاش للهـم والأحزان أشقانا(١٠)

٥ ـ « ديـوان شـعر » ، حققـه وقـدم لـه الدكتـوران أحمـد أحمـد بدوى وحـامد عبد المجيـد ، وقـد رتب أسـامة ديوانه هـذا على حسـب الأغراض الشعرية وقـد أخلاه من الهجاء ذلك أنـه عـزم ألا يكون فى شـعره هـذا اللون على الرغـم من الدوافـع التى كانت تدفعـه الى الهجـاء ، نلمس ذلك فى قـوله :

---

(٩) انظـر الكامل فى التاريخ لابن الأثـير جـ ١١ ص٢١٩ ـ ص٢٢١ ـ دار صـادر بيروت سنة ١٩٧٩ م .

(١٠) هـذان البيتان من قصيدة طويلة فى ديوانه ص٣٠٦ ـ ص٣٠٩ .

ظلمت شعرى وليس الظلم من شيمى
يطيعـنى حيـن أدعـوه وأعصـيه

يهـم أن يذكر القوم اللئـام بمـا
فيهـم فأزجـره عنهـم وأثنيـه

وليس من خلقى ثلـب الغـنى وان
جنى ، ولا ذكر ذى نقص بما فيه(١١)

وفى قـوله : « على أنى بحمـد الله ما فهت برفث ولا هجـاء ولا مدحت لطمـع ولا رجـاء تنزهـا عن رفـث المقـال وترفعـا عن منـن الرجـال »(١٢) .

وفى ذلك مسحة من ترفع الامارة التى تحول بينه وبين النزول الى مستوى السباب والشتائم والمهاترات .

ويبدو ـ كذلك ـ أن أسامة لم يدون كل ما قرضه من شعر ، لأنه لم يرض عن كل ما صدر منه ، فحذف منه ما لم يرقه على حد قوله :

كلمـا رددت فى شـعرى النظـر
بان ضـعف العـى فيـه وظهـر

ليـس يرضـينى ولا يمكـننى
جحد ما قـد شـاع منـه واشتهر

---

(١١) ديوان أسامة بن منقذ ص٢٩٣ .
(١٢) مقدمة اسامة لديوانه ص٤٧ .

فأجيـــل الفـــكر فى تقليـــله
فـاذا قـل اختصرت المختصر(١٣)

وقـوله فى المقـدمة : « فعـدت الى تقليله وتمحيصه ، وقمـت بتنخيله وتلخيصه وفيـه بعـد ذلك عيوب يشـفع فى سترها اعترافى واعتذارى ، وسـاتره أخـو كـرم وفضـل :

وبـــه فقـــر الى ذى كـــــرم
ان رأى ما فيه من عيب ستر(١٤)

وهـذا يـدل على تطلع أسـامة الى مثـل أعلى ، كان يبغى أن يصـل اليـه مستوى شـعره ، ولابـد ان كـان لذلك أثـره فى تهـذيب شـعره وأخـذه ايـاه بالتقويم والتنقيح حتى ظهـر شعره فى هـذا الثـوب ممـا يذكرنا بشـعر الفحـول من أصحاب الشعر المحكك أو أصحاب الحوليات الذين سـموا بفنهـم عن أن يكون مظهرا للتلاعب بالألفـاظ أو الجـرى وراء محسـن لفظى من غـير أن يكون فى البيت معنى جليـل أو خاطـر سـام أو شـعور صـادق .

ولكثـرة ما اطـلع أسـامة على الشـعر القديم كـان يضمنه بعض قصـائده كالذى نـراه فى قـوله يخاطب « معين الدين أنر » :

وأنت أعـدل من يشكى اليـه ولى
شكية أنت فيها « الخصم والحكم »

وما ظننتك تنـسى حـق معـرفتى
« ان المعارف فى أهل النهى ذمـم »

---

(١٣) ديوان أسـامة بن منقـذ ص٤٨ .
(١٤) مقـدمة أسـامة لديوانه ص٤٧ ، ص٤٨ .

لـــكن ثقـــاتك ما زالـــوا بغشـــهم

حتى«استوت عندك الأنوار والظلم»(١٥)

فقـــد ضمن هـــذه الأبيات أشياء من قصيدة المتنبى : « واحـــر قلبـــاه ممن قلبه شـــبم » ، وكقصيدته التى أولهـــا قـــوله :

أطاع الهوى من بعدهم وعصى الصبر

فليس لـــه نهى عليه ولا أمـــر(١٦)

فقـــد ضمنها من شـــعر أبى فـــراس فى قـــوله :

أراك عصى الدمـــع شيمتك الصـــبر

أمـــا للهـــوى نهى عليـــك ولا أمـــر

ومن شـــعر المتنبى كمـــا فى قـــوله :

أســـكان أكنـــاف العواصـــم دعـــوة

بفى برودا وهى فى كبدى جمـــر(١٧)

فقـــد ضمنه قـــول المتنبى :

أريقـــك أم مـــاء الغمامة أم خمـــر

بـــفى برودا وهى فى كبـــدى جمـــر

---

(١٥) ديوان اســـامة بن منقـــذ ص١٩٦ ، تحقيق وتقديم الدكتورين : أحمـــد أحمـــد بدوى ، حـــامد عبد المجيد ، طبـــع بيروت سنة ١٩٨٣ م .

(١٦) أنظـــر القصيدة فى ديوانه ص١٢٢ ـ ص١٢٤

(١٧) ديوان اســـامة بن منقـــذ ص١٢٢ .

ومن شـــعر أبى صـــخر الهذلى كمـــا فى قـــوله :

ومازال صرف الدهر يسعى ببيننـــا
فلمـــا انقضى ما بيننا سكن الدهـــر

فأذهـــل حـــتى لا أجيـــب منـــاديا
وأبهت لا عـــرف لـــدى ولا نكـــر

فقـــد ضمن هـــذين البيتين بيتى أبى صخر وهمـــا :

عجبت لسعى الدهـــر بينى وبينهـــا
فلمـــا انقضى ما بيننا سكن الدهـــر

وما هـــــو الا أن أراهـــا فجـــــاءة
فابهت لا عـــرف لـــدى ولا نكـــــر

وكبيتيـــه من القصـــيدة نفســـها :

وروعـــــة شـــوق تعترينى اليـــكم
كما انتفض العصفور بلـــه القطـــر

فيـــا روعتى لا تسكنى بعد بعدهـــم
ويا سلوة الأيام موعدك الحشر(١٨)

---

(١٨) ديوان اســـامة ص١٢٤ .

فقد ضمنهما بيتى أبى صخر :

وانى لتعرونى لذكراك هزة

كما انتفض العصفور بلله القطر

فيا حبها زدنى جوى كل ليلة

ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

حتى لقد اتهمه حساده بالسرقة ، وهم الذين أشار اليهم فى قصيدته الميمية(١٩) فى عتاب « أنر » والتى تقدم ذكر بعض أبياتها منها . وليس فيما فعل أسامة سوى التضمين كما رأيت .

٥ ـ شاعريته :

ولن يضير أسامة هذا التضمين ولا يحط من قدر شعره هذا الاقتباس فقد كان الرجل واسع الاطلاع معدودا من علماء عصره وكبار مثقفيه فلا غرابة أن تأثر أسلوبه بأسلوب هؤلاء الشعراء الممتازين فثقافة الشاعر ذات أثر كبير فى أسلوبه .

والحق أن « شعر أسامة من النوع الجزل الفخم لا نكاد نجد فيه من الهنات الا النذر اليسير ، فهو فى

---

(١٩) راجع القصيدة فى الديوان ص٩٠ ، ص٩١ ، ص١٩٦ الى ص١٩٨ .

عصره يوضع فى مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر وكسوه حلة من الفخامة والقوة والجلال »(٢٠) .

وقد ظفر شعره منذ حياته بعناية الأدباء وتقديرهم فاختار له العماد الأصفهانى فى خريدته وأبو شامة فى الروضتين والذهبى فى تاريخ الاسلام وياقوت فى معجم الأدباء وغيرهم وكل يقرن ما أختاره له بأسمى عبارات الاعجاب والاجلال . وكان ديوانه مما أحب صلاح الدين الأيوبى صحبته وقراءته وترديد النظر فيه بين الحين والحين ، حتى نقد دفع ذلك بعض الشعراء الى معارضته فيما كان صلاح الدين يعجب به من قصائده .

ذكر صاحب الروضتين فى أخبار الدولتين قال : « روى العماد الكاتب قال : لزمت خدمة السلطان صلاح الدين أرحل برحيله وأنزل بنزوله . وكنت ليلة عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة ابن مرشد بن سديد الملك على بن منقذ ، وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف والى استحسانه مصروف وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها ، وان خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على أن الشعراء المحدثين ما منهم الا نظم عى رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها »(٢١) .

---

(٢٠) مقدمة محقق الديوان ، د. احمد احمد بدوى ص٣٩ .
(٢١) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة ج ١ ص٢٤٧ .

ونقل ياقوت فى معجم الأدباء أن « العماد قال : وأسامة كاسمه فى قوة نثره ونظمه يلوح من كلامه أمارة الامارة . ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة حلو المجالسة ، ندى الندى بماء الفكاهة عالى النجم فى سماء النباهة معتدل التصاريف مطبوع التصانيف »(٢٢) .

وصدق العماد فأسامة يعد بحق فى الطليعة بين شعراء وأدباء ونقاد عصره الذين خلد الأدب أسماءهم من أمثال : الموفق بن الخلال والمهذب بن الزبير وطلائع بن رزيك وعمارة اليمنى وأبى الفتح محمود بن قادوس وابن الحباب وغيرهم ، وقد فاقهم أسامة وتفوق عليهم اذ تستمع الى شعره فيروقك منه معناه وتعجبك منه حلته المتينة النسج . فهو من الشعراء الذين ردوا للشعر العربى أسلوبه الرفيع الذى كان له فى عصوره الزاهرة .

ولعل سر تفوقه هو ثقافته الواسعة وحفظه الكثير من مأثور الأدب الموروث عن أساطين الأدباء وفحولهم وأنه كان يعنى بالتعبير عما يمر به فى الحياة من تجاربه الشخصية فكان لحياة التجربة فى نفسه أثرها فى قوة شعره(٢٣) .

---

(٢٢) معجم الأدباء لياقوت الحموى جـ ٥ ص١٩٥ ، مطبوعات دار المأمون ، تحقيق د. أحمد فريد رفاعى .

(٢٣) أنظر مقدمة محقق ديوان اسامة ، د. حامد عبد المجيد ص٤٣ .

٦ ــ وفـــاته :

بعـد حيـاة طويلة عاشها أسـامة فى كـل من الشـام ومصـر توفى ليـلة الثلاثـاء ٢٣ من رمضـان سـنة ٥٨٤ هـ ودفـن من الغـد شرقى جبـل « قاسيون » ، يقـول ابن خلكان : « ودخلت تربتـه وهى على جـانب نهـر يزيـد الشمالى وقـرأت عنده شـيئا من القـرآن وترحمت عليـه »(٢٤) .

وكـان أسـامة كمـا يروى ياقـوت عن العمـاد : « أسـكنه عشـق الغوطـة فى دمشـق المغبوطة ، ثم نبت بـه كمـا تنبـو الدار بالكـريم ، فانتقـل الى مصـر فبقى بهـا مؤمـرا مشـارا اليـه بالتعظيم الى أيـام ابن رزيك فعـاد الى الشـام وسـكن دمشـق مخصوصا بالاحترام حتى أخـذت « شـيزر » من أهـله ، ورشقهم صرف الزمـان بنبـله ، ورمـاه الحـدثان الى حصـن « كيفـا » مقيمـا بهـا فى ولـده ، مؤثرا لهـا على بلـده حتى أعـاد اللـه دمشـق الى سلطنة الملك النـاصر صـلاح الدين يوسف بن أيوب سـنة سبعين وخمسمائة ولـم يزل مشغوفا بذكـره ، مشتهرا باشاعة نظمـه ونثـره .. فاستدعاه الى دمشـق وهـو ــ أى أسـامة ــ شـيخ قـد جـاوز الثمانين .

ويتـابع العمـاد قـوله فيقول : « وكنت أتمنى لقيـاه ، وأشيم

---

(٢٤) وفيـات الأعيـان وانبـاء ابنـاء الزمـان لابن خلـكان ج ١ ص١٩٩ ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر بيروت ، وكـان ابن خلكان قـد زار قبـر اسـامة بعـد قـرن من الزمـان .

على البعد محياه حتى لقيته فى صفر سنة احدى وسبعين بدمشق وسألته عن مولده فقال : ولدت فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة »(٢٥) .

واذن يكون أسامة قد عمر فى الحياة ستة وتسعين عاما بعد أن أخذ يشكو طول العمر وثقل الحياة عليه فحينا يجد فى الموت أعظم راحة له تنقذه من ضعفه وحينا تنهال عليه ذكريات شبابه وصباه ويوازن بين ضعفه اليوم وقوته فى عهده السالف فقد كانت كفه مألفاً للسيف والرمح فصارت تحمل العصا يمشى بها كما يمشى الأسير مكبلا بالقيد على حد قوله :

اذا عاد ظهر المرء كالقوس والعصا
له حين يمشى وهى تقدمه وتر
ومل تكاليف الحياة وطولها
وأضعفه من بعد قوته الكبر
فان له فى الموت أعظم راحة
وأمنا من الموت الذى كان ينتظر(٢٦)

وقوله :

حملت ثقلى بعد ما ثبت العصا
فتحملته تحمل المتكاره

---

(٢٥) معجم الادباء ص١٩٢ — ص١٩٤ .
(٢٦) ديوان أسامة بن منقذ ص٣١٩ .

ومشـــت بـــه مشى الحسير بوقـــره
لا يســـتقل مقيـــدا بعشـــاره

ما آداهـــا ثقلى ولكن ثقـــل مـــا
أبـــلى الشـــباب عـــلى مـــن أوزاره

ورجاى معقود بمن أعطى أخـــا السبعين عهدة عتقه من ناره(٢٧) .

وكمـــا فى قـــوله :

كـــم قد شهدت من الحروب فليتنى
فى بعضها من قبـــل نكسى أقتـــل

والقتـــل أحسن بالفتى من قبـــل أن
يبـــلى ، ويفنيـــه الزمـــان وأجمـــل

وأبيـــك ما أحجمت عن خوض الردى
فى الحـــرب ، يشهد لى بذاك المنصل

واذا قضـــاء اللـــه أخـــرنى الى
أجلى المؤقت لى فمـــاذا أفعـــل(٢٨)

وغـــير ذلك كثـــير ضـــمه ديوان شـــعره ولكنى أكتفى منـــه بما أوردت ولعـــل فى هـــذا الضـــوء الذى ألقيتـــه على حيـــاة أســـامة ما يكـــون قـــد كشف لنـــا عن شخصيته الأدبيـــة .

والآن ننتقـــل الى الحديث عن مقاييسه النقـــدية للأدب .

---

(٢٧) ديوان اســـامة ص٣٢٥ .
(٢٨) المصدر نفســـه ص٣٢١ .

- ٣ -

مقـاييس أسـامة النقـدية

ولكن قبـل الشـروع فى تلك المقاييس التى جعلها أسامة أدوات لتقـويم العمـل الأدبى أريـد أن أوجـه النظـر الى أمـور :

١ ـ أن النقـد الأدبى بـدأ منـذ أواخـر القـرن الرابـع وأوليـات القـرن الخامس الهجرى يتحـول من نقـد أدبى خالص قـوامه التذوق والتحليـل الى نقـد بلاغى يقـوم الصورة الأدبية على حسـب ما تقتضيه القواعـد البلاغية .

وكـان كتـاب الصناعتين لأبى هـلال العسكرى نقطة هـذا التحـول حيث لـم يقف عند النصوص الأدبيـة يحللها ويتذوقها ، وانمـا أغـرق النقـد فى خضـم التعاريف والتقاسيم وجنـح بـه الى القواعد الجـافة والتفريعات المنطقية(٢٩) .

٢ ـ منـذ بدايـة القـرن السادس ـ وهـو عصر أسامة ـ أخـذت دراسات النقـد ـ الذى تحـول الى نقـد بلاغى ـ تتجمع فى بحـوث البـلاغة (المعـانى والبيـان والبديع) دون تحـديد كل ميدان منهـا وانمـا كانت مسائلها مختلطة بعضها ببعض .

---

(٢٩) أنظـر النقـد المنهجى عند العـرب ، د. محمد مندور ص٣١٢ .

« وكانت البلاغة من أهم ما كان يدرس فى عصر أسامة فقد كانت المقدرة البلاغية أحياناً سبيلا ممهدة للوصول الى مرتبة الوزارة وكان المنهج المتبع فى تعليمها يومئذ منهجا عمليا قوامه التمرين والاقتداء .

وقد درست بلاد الشام ومصر يومئذ البلاغة فيما عرفته اللغة العربية من الكتب التى ألفت فيها من قبل ، سواء فى ذلك ما وضع فى مسائل البلاغة بخاصة أو ما تناولها وان لم يخصص لها من مثل « المجاز لأبى عبيدة » ، ونقد قدامة بن جعفر ، وبديع ابن المعتز ، والصناعتين لأبى هلال ، والموازنة بين الطائيين ، والوساطة بين المتنبى وخصومه ، وسر الفصاحة للخفاجى ، والأقصى القريب للتنوخى ، وحلية المحاضرة للحاتمى ، وغير ذلك من الكتب التى تناولت النواحى البلاغية والنقدية »(٣٠) .

وكان الدارسون لها يرمون الى هدفين :

أولهما : دراسة بلاغة القرآن ومعرفة مظاهر فصاحته .

وثانيهما : القدرة على تذوق القول الجميل والقدرة على انتاجه .

وقد يتغلب أحد الهدفين على الآخر عند بعض الدارسين

---

(٣٠) مقدمة كتاب « البديع فى نقد الشعر » ، د. احمد احمد بدوى ص٣ ، ص٤ .

كما هو الحال عند أسامة اذ يغلب عليه ضرب المثل البلاغية للتذوق والاقتداء • وكان أسامة ذا ذوق مرهف وشاعرية مطبوعة — كما سبق أن بينا — فاستطاع أن يجمع حشدا من الأمثلة المتخيرة والنماذج الأدبية المنتقاة فى معظم الأبواب التى ضمها كتابه « البديع فى نقد الشعر » وكما هو فى كتابه الآخر « المنازل والديار » •

٣ — كانت غاية النقاد فى عصر أسامة تهدف الى تربية الذوق للناقد ، ومن أجل هذا أكثروا أيما اكثار من الشواهد الأدبية والنماذج الممتازة — كما فعل أسامة فى مختاراته — وأقلوا من مناقشة التعريفات وعدم تحليل النماذج ، ولعلهم قصدوا من وراء ذلك عدم فرض أذواقهم الخاصة على الناس بل أرادوا أن يتركوا لقراء الأدب حرية التذوق واطلاق الفكر فى تمييز الجيد من الردىء عن طريق كثرة النصوص الأدبية المختارة والنماذج المنتقاة حتى يتربى فيهم الذوق الناقد لا عن طريق المناهج التقريرية والنزعة التعليمية والقواعد المقننة كما فعل قدامة وأبو هلال ومن لف لفهما •

٤ — اتجه النقاد فى عصر أسامة الى البديع يبنون عليه أحكامهم بالنسبة للعمل الأدبى اذ رأوا فيه الفن الجميل الذى يمتع الأذن ويسهل على اللسان ويعذب وقعه فى النفس بسبب ما يحدثه من التقسيم والابداع • ومن ثم كان اهتمام النقاد حينئذ منصبا على البديع وفنونه كمقياس لتقويم العمل الأدبى على أساس أن الخصائص اللفظية مقدمة عندهم على الخصائص

المعنوية من ناحية ان الخصائص اللفظية هى التى تحقق الجمال الفنى وان الصياغة الفنيـــة للألفاظ هى التى تبـــرز حقيقة المعنى وجمـــاله حتى ان العمـــاد الأصفهانى المتوفى ســـنة ٥٩٧ هـ كـــان ينظـــر فى خريدته للشعراء على أســـاس اجادتهم للبديـــع واستخدامهم لـــه فيمـــا ينظمون من شـــعر كقوله معقبـــا على بيت للمهذب بن الزبير :

وافى فأردى رجـــالا بعد ما نعـــموا
دهـــرا وأحيا رجالا بعد ما هلـــكوا

يقـــول العمـــاد :

« ليس فى هـــذا البيت مدح ولا ذم ولا لـــه فى الثنـــاء والاطراء ســـهم فـــانه كمـــا أحسن بالاحياء أســـاء بالارداء ... ولـــو قال : أردى لئامـــاً بعـــد ما نعمـــوا .. وأحيـــا كراما بعـــد ما هلكوا لوفى الصنعة حـــق التحقيق وأهدى ثمرة المعنى على طبق التطبيق »(٣١) .

فالعمـــاد لـــم يستحسن البيت لأنـــه لـــم يحـــو بديعـــا اذ لـــم يقـــابل الشاعر فيـــه بين معنى الارداء والاحيـــاء ولا بين معـــنى اللـــؤم والكـــرم ولـــو أنـــه فعـــل لوفى الصنعة حقهـــا ، وفى هـــذا ما يدلنـــا على مـــدى عناية النقـــاد ـــ فى مصـــر والشـــام لهـــذا العهـــد ـــ بالبديع وشغفهم بـــه .

وكانت الغـــاية من دراســـة البديـــع هى كمـــا عبـــر أســـامة :

---

(٣١) خريدة القصـــر جـ ١ ص٢١٣ ، تحقيق الأستاذين عمر الدسوقى وعلى عبد العظيـــم ، دار نهضة مصـــر سنة ١٩٦٤ م .

« أن يأتى الكلام منحدرا تحدر الماء المنسجم سهولة سيل وعذوبة ألفاظ حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون وقع فى النفوس وتأثير فى القلوب »(٣٢) .

ومن هنا كان تعرضه للبديع فى أدق جزئيات التعبير فتحدث عن اللفظ وخصائصه الحسية ، كما تناول الصلة بين اللفظ والمعنى ، وبين اللفظ والوزن ، وبين الألفاظ بعضها ببعض ، كذلك ربط بين البديع والسرقات الشعرية فأفرد لها ضمن أبوابه مكاناً بأسماء مختلفة كالتضمين والتوليد وهو : « توليد المحدثين من معانى السابقين معانى جديدة » ، وسلامة الاختراع من الاتباع وهو : « أن يخترع الأول معنى لم يسبق اليه ولم يتبع فيه » وحسن الاتباع وهو : « أن يأتى المتكلم الى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التى توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقدم اما باختصار لفظه أو قصر وزنه أو عذوبه قافيته أو بتميم لنقصه أو تكميل لتمامه » الى غير ذلك مما احتواه كتابه « البديع فى نقد الشعر » حيث جمع فى هذا الكتاب خمسة وتسعين نوعاً من البديع ايمانا منه بأن البديع هو الذى يحقق اللذة الحسية والمتعة النفسية بما يعمد الى استغلال اللفظ بصوره المتعددة معتمدا فى ذلك على خصائصه الصوتية حينا والرمزية حينا آخر .

وأسامة حين تعلق بالبديع لم يتخل عن الذوق كما فعل غيره من المشارقة أمثال المطرزى والسكاكى اللذين حكما مقاييس

---

(٣٢) البديع فى نقد الشعر ص١١٣ .

المنطق دون أصـول الجمـال والحسـن فجاء البديـع عندهما صنعة متكلفـة لا روح فيهـا ولا حيـاة ، أمـا أسـامة ـ وكان شـاعرا ذا بصـر بمواضع القبـح والحسن ـ فقـد كان يهـدف من دراسة البديع كمقياس للعمـل الأدبى ـ كـان يهـدف من وراء تلك الدراسة الى تربيـة الذوق الخـالق الذى يسـتطيع أن « يميـز الخبيث من الطيب » والحسـن من القبيـح .

(أ) مقاييس نقـد اللفـظ :

تحـدث أسـامة عن اللفظ وخصائصه الحسية ودور الأصوات من جميـع جوانبهـا : من جـانب المخارج والموسيقا ، والصـعوبة والسهولة على اللسـان ، والعـذوبة والثقـل عـلى الآذان وتوافق حـروف معينـة وسهولة أخـرى واتفـاق بعضها وتنافـر بعضها الآخـر ، وقـد توصـل الى خصائص جمالية فى أبواب متعـددة : التجنيس بأنواعه والترصيع والتوشيح والسـجع والتطريز وغيرهـا من الأبواب التى خصصها للحديث عما يجعل الأسلوب ويرتقى بالتعبير، وحتى ينـال النص نصـيبه من بيـان جمـاله وقبحـه فقد عـرض لكثـير ممـا ينقص من جمـال القـول ويضـع من شـأنه وذلك فى أبـواب : الحشـو والفسـاد والمناقضة والتهجين والمعاظلة والجهامة والركاكة وغيرهـا . فبدأ بذكـر المحاسن أتبعـه بذكـر المسـاوىء وهـذا هـو النقـد السـديد فالنقـد الصحيح هـو ذكـر المحاسن والعيوب . وقـد وضـع أسـامة مقاييس لكل ذلك فأخـذ يدعـو الشعراء الى تهذيب الشـعر وحسـن سـبكه وتثقيفه لرفع ما يشينه أو يقلقـه من الألفـاظ مفـردة أو مركبـة .

١ ــ مقاييس اللفظ مفــردا(٣٣) :

شرط أســامة للفــظ مفــردا أن يجيء ســمحا سهل المخــارج رشــيقا مألوفــا غــير حــوشي ولا مبتــذل مستكره • فحــذر من التقعــر فى اللفظة ووصى بالابتعاد بهــا عمــا يجهمها ويجعلها رذلــة مستهجنة تمجها الأذواق السليمة والطبــاع المستقيمة • يقول أسامة . « واترك التقعيب والتقعير وهــو التكلم بالوحشى الغريب مثــل قــول زهــير ولا بحقــلد » فى بيتــه الذى يقــول فيــه :

تــقى نــقى لــم يكثــر غنيمــة
بنهكة ذى القــربى ولا بحقــلد(٣٤)

ويقــول : « وايــاك والتقعــير فى الألفــاظ ولتقصد الكــلام الجــزل دون الــرذل والعــذب دون الجهــم »(٣٥) .

ويعــرف الجهامة بأنهــا : « الكلمات القبيحــة فى السمع مثــل قــول الشنفرى :

---

(٣٣) وليس المــراد من اللفظ المفــرد مجــرد اللفظ . وانمــا المــراد صــورة المعنى من خــلال اللفظ اى من حيث انــه رمــز للمعنى إذ لا مزية للفــظ من حيث هــو لفــظ منطوق وانمــا المــزية فيمــا يحــدثه مــن خصوصية فى المعنى وهــو ما عبر عنه عبد القاهــر الجرجانى بالصورة ، « انظــر دلائل الاعجــاز ص ٣٤٩ » .

(٣٤) البديــع فى نقــد الشــعر ص٢٩٧ . والحقلد : هــو البخيــل السيء .

(٣٥) البديــع فى نقــد الشعر ص٢٩٥ .

أو الخشرم المبعـوث حثحث دبـره
مخـابيط أرساهن سـأم المغبيـل

يقـول أسـامة : « فـلا خـلاف فى جهامة هـذه الألفـاظ ان عرضت على صـاحب ذوق سليم وان كانت صحيحة المعـانى » .

وأمـا الرشاقة فهى حـلاوة الألفـاظ وعذوبتها ، كمـا قـال الشنفرى :

لتقـرعن عـلى السـن من نـدم
اذا تذكرت منى بعض أخـلاقى(٣٦)

وينقـل وجهـة نظـر السابقين من النقـاد فيورد رأى كـل من : الجـاحظ والحاتمى وابن قتيبة وأبى هـلال العسكرى فى هـذا المقـام فيقـول : « وذكـر لشيخ أبـو لفتـح عثمان رحمـه الله فى كتـاب « البيـان » عيبـا وسـماه الاستكراه وهـو تقارب مخارج الحروف والألفاظ وأنشد بـه ذكـر أن العلماء المتقدين ينسبونه الى الجـن وهـو :

وقبـر حـرب بمكـان قفـر
وليس قـرب قبـره مـن قبـر

ويروى الشطر الثـانى هـكذا :
وليس قـرب قبـر حـرب قبـر

---

(٣٦) البديـع فى نقـد الشعر ص١٦١ .

وأنشـــدوا أيضـــا فى هـــذا المعنى :

لـــم يضرهـــا والحمـــــد للـــه شىء
وانثنت نحو عسف نفس ذهول(٣٧)

وفى كتـــاب حليـــة المحـــاضرة :

واسق العـــدو بكأسه واعـــلم لـــه
بالغيب أن قـــد كـــان قبـــل سقاكها
واجـــز الكرامة من ترى لـــو أنـــه
يومـــا بذلـــت كـــرامة لجزاكهـــا

وقـــال : « أحســـن الكـــلام ما كـــان مسبوك الألفاظ ســـهل المخـــارج فى حـــروفه وليس شىء فى هـــذا البـــاب مثـــل القـــرآن الكريم ، ولذلك لا يســـأم ولا يمـــل على كثرة الدرس والترداد »(٣٨).

ويقـــول : « ومنـــه ما ذكـــره ابن قتيبة فى كتـــاب عمـــدة الكتاب عيبـــا سماه التقعير والتعقيب وهـــو استعمال اللفظ الغريب جـــدا . وهـــو العتمى والوحشى ومثل قولهم : « هـــذا من ضئضىء القـــوم » ولا خلاف أن قولنـــا : « أرومة » أحســـن منـــه وان كان غريبا(٣٩) .

---

(٣٧) عـــاب الجاحظ البيت الأول لتنـــافر الحـــروف فيـــه ، وعـــاب الثـــانى بقـــوله : « فتفقـــد النصف الأخـــير من هـــذا البيت فستجد بعض ألفـــاظه يتبـــرأ من بعض » ؛ انظـــر البيان والتبيين ج ١ ص٦٥ ، ص٦٦ .

(٣٨) البديـــع فى نقـــد الشعر ص١٦١ وما بعدهـــا .

(٣٩) المصدر نفســـه ص١٦٢ وما بعدهـــا .

وذكـر فى كتـاب الصناعتين أن بعضهم كتب الى حاجبه كتـابا وعنـونه : من مكركسه ومحبوسكه فلان ، ولا خلاف فى بشاعة هـذه الألفـاظ ، ولذلك قـال العلمـاء : أجـود الكلام ما كـان لا قـرويا ولا بدويـا(٤٠) .

وقـال : « الكـلام ثلاثة أصناف ، عـامى وخـاصى ووحشى فالعـامى لا يستعمل لركاكة فيـه ، والوحشى لا يستعمل لجهامتـه ، والخاصى يستعمل لفصاحته وملاحته ، فالعامى مثـل قولك : « عـدلا جمـل » والوحشى مثـل قـولك : « صـنوا جرثومة » ، والخـاصى قـولك « فرسـا رهـان »(٤١) .

٢ ـ مقيـاس الأسلوب :

أمـا الأسلوب فاشترط أن تكون كلماته متوازنة وفواصله متقابلة غـير متكلفة . على حـد قـوله : « وليكن كلامك سـليما من التكلف بريئـا من التعسف وليحـط لفظـك بمعناك ويشتمل على مغـزاك ، فـان البـلاغة سرعة جواب فى صواب »(٤٢) .

وأن تقـع كـل كلمة فى الأسلوب فى مكانها اللائق بهـا والا كان كالجسد المعكوس الأعضـاء(٤٣) . ويرى أن التكلف هـو الاكثار من البديع كالطبـاق والجناس وذلك ما يعـاب بـه الشعراء ، ولهـذا

---

(٤٠) البديـع فى نقـد الشعر ص١٦١ وما بعدهـا .
(٤١) البديـع فى نقـد الشعر ص١٦٢ .
(٤٢) المصـدر نفسـه ص٢٩٧ .
(٤٣) المصـدر نفسـه ص٢٩٦ .

عـابوا على أبى تمـام لأنـه كثـر البديع فى شـعره ، ثـم انهـم استحسنوا شـعر غـيره لقلتـه وقـالوا : « انـه بمنزلة اللثغـة تستحسن فـاذا كثرت صارت خرسـا ، والشية تستحسن فى الفرس فـاذا كثـرت صارت بلقـا ، والجـودة تستحسن فى الشعر فـاذا كثرت صارت قططـا ، ولهـذا قالوا : خـير الأمور أوسطها والحسنة بين الشيئين والفضيلة بين الرذيلتين »(٤٤) .

ولـم يفـت ابن منقـذ أن ينبـه الى أمـور تتعلق بالأسلوب من حيث ملاءمته لمقتضى الحـال طـولا وقصـرا ، فأوجب على الأديب أن يراعى التطـويل فى مكـانه وأن يستعمل التقصـير فى مكـانه . وذلك قـوله :

« واعـلم أن الايجـاز اذا كـان كافيـا كـان التطويل غثـا ، وان كـان التطويل واجبـا كـان التقصير عجـزا ، واياك أن تفـرط وتفـرط فـان فرطت قصرت وان أفرطت كثـرت ، وخـير الأمـور أوسط ها .. وأحسـن الكـلام ما قـل ودل ، وجـل ولـم يمـل وأن يكون الكاتب حـلو الكلام قـريب المعـانى ولا يكلم العـامة بكـلام الخاصة ولا يداخل ألفـاظ العلمـاء فى ألفـاظ العـرب ، ولا يركب الضرورة وان كانت من ضرورات العـرب لأنهـا تحسـن منهـم ولا تحسـن منـا .. واعـلم أن محاسن الشـعر ثلاثـة : التطبيق والتجنيس والمقابلة(٤٥) .

---

(٤٤) البديـع فى نقـد الشعر ص١٦٣ ، ص١٦٤ .

(٤٥) البديـع فى نقـد الشعر ص٢٩٨ .

ومن هنا استحسن قول الشاعر :

ان هذا الربيع شيء عجيب
تضحك الأرض من بكاء السماء

وقول الآخر :

لا تضحكى يا سلم من رجل
ضحك المشيب من رأسه فبكى

وقول الآخر أيضا :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد
لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ولسنا على الأعتاب تدمى كلومنا
ولكن على أعقابنا تقطر الدما(٤٦)

لما حوته هذه الأبيات من بديع الطباق .

كما استحسن قول الشاعر :

فكن رجلا رجله فى الثرى
وهامة همته فى الثريا

فان اراقة ماء الحيا
ة دون اراقة ماء المحيا

---

(٤٦) البديع فى نقد الشعر ص٣٧ .

وقــول أبى تمــام :

السيف أصــدق أنبــاء من الكتــب
فى حده الحد بين الجــد واللعب(٤٧)

لمــا تضمنته هــذه الأبيــات من جنــاس .

وكــذلك قــول جــرير :

وباســط خــــير فيــكم بيمينــه
وقــابض شــــر عنــكم بشــماليا

وقــول أبى الطيب :

أزورهم وظــلام الليــل يشــفع لى
وأنثنى وضياء الصبح يغرى بى(٤٨)

ومما جــاء على شاكلة هــذه الأبيات مما احتوى على طباق أو جنــاس أو مقــابلة ، كمــا عــاب على الأعشى قــوله :

وقــد غدوت الى الحــانات يتبعنى
شــلو مشــل شلول شلشل شــلل

وقــال ســئل الأصمعى عن هــذا البيت فقــال لا أعرف معناه .

---

(٤٧) البديــع فى نقــد الشعر ص١٦ ، ص١٧ .
(٤٨) البديــع فى نقــد الشعر ص١٢٨ .

وقـول مسـلم فى الخمـر :

سـلت وسـلت ثـم سـل سليلها
فغـدا سـليل سـليلها مسـلولا

وكـذلك عـاب المتنبى فى قـوله :

فقلقلت بالهـم الذى قلقل الحشـا
قلاقـل هـم كلهـن قلاقـل

وقـال : « ان الأعشى شلشل وان مسلما سلسـل وان المتنبى قلقـل »(٤٩) .

كمـا أنـه رأى أن للشعر ألفاظـا لا تصلح للنثـر ، يقـول : « فـان الشيح والثمام فى الشعر أحسن من الخـوخ والرمان »(٥٠).

هـذا فيمـا يتصـل بمقاييس نقـد اللفـظ مفردا ومركبـا .

أمـا مقاييس نقـد المعنى فهى :

(ب) مقاييس نقـد المعنى :

عـرض أسـامة لتلك المقاييس من عـدة وجـوه ، فقـد رأى :

---

(٤٩) البديـع فى نقـد الشعر ص١٤٥ .

(٥٠) البديـع فى نقـد الشعر ص٢٩٨ .

١ ـ أنه لابد من تلاؤم اللفظ مع المعنى وتساويهما(٥١) لابراز العمل الأدبى فى أكمل بيان وأحسن صورة ، وعلى هذا فلا انفصام بين اللفظ والمعنى ، وقد عد الألفاظ بمثابة الأجساد والمعانى بمثابة الأرواح وذلك قوله : « واعلم أن الألفاظ أجساد والمعانى أرواح فاذا قويت الألفاظ فلتقو المعانى ليحمل بعضها بعضا»(٥٢) .

ومن هنا فقد اشترط أسامة أن يجىء اللفظ على قدر المعنى لا زائدا ولا ناقصا ولهذا عاب قول الشاعر :

نأت سلمى فعاودنى
صداع الرأس والوصب

---

(٥١) ولا يرى ابن الأثير ما رآه اسامة فى هذا المقام . فقد رد ابن الأثير كلام أسامة الذى يقول بتساوى اللفظ فى العبارة . واعترض عليه بقوله : « هذا الذى ذكره ـ اى اسامة ـ شبيه بالسفسطة وهو باطل من وجهين : احدهما ان المعانى اذا كانت لا تزيد على الالفاظ فيلزم من ذلك أن الالفاظ لا تزيد أيضا على المعانى لانهما متلازمان ونحن نرى معنى قد دل عليه بألفاظ فاذا أسقط من تلك الالفاظ شىء لا ينقص ذلك المعنى بل يبقى على حاله ، والوجه الآخر أن الايجاز بالحذف اقوى دليل على زيادة المعانى على الالفاظ لأنا نرى اللفظ يدل على معنى لم يتم وفهم ذلك المعنى الزائد على اللفظ مفهوم من دلالته عليه (المثل السائر ج ٢ ص٧٩) غير أن مراد أسامة بالزيادة أن تخلو العبارة من الزيادة التى تخل بالمعنى فتجعله مملا وبالنقص الا يحذف من العبارة الفاظ فيكون الكلام مخلا ، يؤيد ذلك قوله : « ان الايجاز اذا كان كافيا كان التطويل غثا واذا كان التطويل واجبا كان التقصير عجزا » (البديع فى نقد الشعر ص٩٧) .

(٥٢) البديع فى نقد الشعر ص٢٩٦ .

وقـال : « فالرأس حشو لا فـائدة فيـه لأن الصداع لا يكون فى الرجـل ولا فى الأنف وانمـا هـو فى الرأس » .

وقـول الآخـر :

فمـا برحـت تـومى الى بطرفهـا
تحـذره خـوف الوشـاة وتومض

يقـول : فقـوله وتومض « مكـرر لأن الايمـاء هـو الايماض كمـا قـال عمـر بن الخطـاب رضى اللـه عنـه للنبى — ﷺ — يارسول الله . هـلا أومضت الى ؟ فقال ﷺ : النبى لا يغمـز »(٥٣).

وقـد مـدح بعض الكتاب بقـوله : « كـأن ألفاظـه قـوالب معانيـه »(٥٤) .

٢ — كـذلك من مقاييس نقـد المعنى . أن يكـون اللفظ موافقا للمعنى من حيث القـوة والجـدة والندرة والطرافة ، أمـا أن يكون المعنى متنـاولا واللفـظ متداولا كالكلمات المستعملة والألفاظ المهملة فهـذا ما يسميه الركاكة كقـول امـرىء القيس :

ألا اننى بـال عـلى جمـل بـال
يقـود بنـا بـال « ويتبعنا بـال »

ويعجب أسـامة من أبى هـلال العسكرى حين عـد هذا البيت من محاسن الشـعر ، يقـول أسـامة : « ومن عجـب أن صـاحب

---

(٥٣) البديع فى نقـد الشعر ص١٤٣ .
(٥٤) البديـع فى نقـد الشعر ص٢٩٧ .

الصناعتين جعله من محاسن الشعر ولقبه بالتعطف ؛ ولا خلاف بين العالم والجاهل فى ركاكته »(٥٥) .

وقد استحسن بيتين لابن المعتز لأنه — أى ابن المعتز — راعى فيهما تلازم اللفظ والمعنى من حيث جودة المعانى وروعة الأداء وتعانقهما فجاءا على أحسن ما يكونان عليه من الحسن والجمال وآية فى الفصاحة والبيان .

وهذان البيتان هما :

كأن أرماحه تتلو اذا افترست

زبور داود فى محراب داود

هيهات راعهم فى كل معترك

ليث الليوث وصنديد الصناديد

يقول أسامة معلقا على هذين البيتين : « أما من طرية المعنى وحسن السبك ومتانة المبنى فهذان البيتان طرازان على كمى الأدب وتاجان على مفرقى البلاغة والفصاحة فى العرب »(٥٦) .

٣ — وكما حذر أسامة من تقعير الألفاظ — على ما سبق —

---

(٥٥) البديع فى نقد الشعر ص١٦٤ .

(٥٦) المصدر نفسه ص٧١ .

ودعـا الى البعـد عمـا يجهمها ويرذلها حـذر أيضـا من المعاظلة وهى التعقيد فى المعـانى • فدعـا الى وضوح المعنى(٥٧) وجـودته واستيفائه • وهـو لذلك يذكـر ألوانـا بديعية تصبح بهـا المعانى جيـدة مسـتوفاة •

من ذلك ما دعـاه :

(أ) التتميـم : وهـو أن يذكـر الشاعر معنى ولا يغادر شيئا يتـم بـه الا أتى بـه فتكامل لـه الحسـن والاحسان ويبقى البيت ناقص الكلام فيحتاج الى ما يتممه بـه من كلمـة توافق مافى البيت من تطبيق أو تجنيس • وجعـل منـه قـوله تعـالى : « من عمـل صالحا من ذكـر أو أنثى وهـو مؤمن » فهـذا تتميم المعنى • وقـوله تعـالى : « إن الذين قـالوا ربنـا الله ثـم استقاموا » تتميم أيضا• فهـذا من جوامع الكلم ، وقـول امـرىء القيس :

كـأن عيـون الوحش حـول خبائنا

وأرحلنـا الجـزع الذى لـم يثقب

فقـول امـرىء القيس « لـم يثقب » تتميـم لأن المعنى تـم دون هاتين اللفظتين فلمـا جـاء بهما تمـم البيت وزاد فى التشبيه زيـادة بينـة •

---

(٥٧) يقـول اسمـاعة فى ذلك : « وايـاك وتعقيد المعـانى » ويقول : ولا تعقد المعـانى فتحـوج الى كشف فـان أحسن الشعر ما سـبق معناه الى قلبـك » .

وجعل منه قول الشاعر :

فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته

فما ليل مظلوم كريم بنائم

فقوله : « كريم » تتميم لأن المظلوم الذى لا ينام ليله مفكرا فى الخروج انما هو الكريم ، أما اللئيم فيغضى عن العار وينام عن الثأر »(٥٨) .

(ب) ومن ذلك ما سماه « التقسيم » . وهو أن يقسم المعنى بأقسام تستكمله فلا تنقص عنه ولا تزيد عليه كما قال الله تعالى : « وهو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا » .
وقد عد أسامة من التقسيم الجيد قول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث

نفار أو وفاق أو جلاء(٥٩)

اذ الحق يتضح بيمين مصدقة أو جلاء يكشف الأمر ويوضح الحقيقة عن طريق شهود يذكرونها أو الالتجاء الى حاكم يرى فى الأمر حتى يصل الى وجه الصواب .

(ج) كذلك من الأنواع البديعية التى عدها أسامة للوفاء

---

(٥٨) البديع فى نقد الشعر ص٥٣ - ص٥٦ .
(٥٩) المصدر نفسه ص٥٦ .

بالمعنى كمقياس من مقاييس نقد المعنى (الاعتراض) وهو أن تذكر فى البيت جملة معترضة لا تكون زائدة بل يكون فيها فائدة كقول المتنبى :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب
ترى كل ما فيها ـ وحاشاك ـ فانيا

احترز بقوله « حاشاك » من دخوله فى الفناء(٦٠) .

(د) ومن الألوان أيضا التذييل . وهو أن تأتى فى الكلام جملة تحقق ما قبلها أى تكمل الجملة التى قبلها وتؤكدها فى نفس سامعها فيزداد المعنى وضوحا ويتمكن فى القلب ويجعل منه قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب ؟(٦١)

فالقسم الأول من البيت يعلن أن الانسان لن يكون له صديق اذا تطلب فى هذا الصديق كمالا لا عيب فيه . ثم جاء بالتذييل مستفهما به استفهاما انكاريا أن يكون ثمة رجل كامل التهذيب لا نقص فيه .

---

(٦٠) البديع فى نقد الشعر ص١٣٠ .
(٦١) البديع فى نقد الشعر ص١٢٥ .
(٦٢) البديع فى نقد الشعر ص٢٩٠ .

٣ - ومن نقد المعنى عند أسامة أن يكون المعنى ملائما للغرض الشعرى « فيجب أن يمدح كل واحد بما يليق به ويصلح له »(٦٢) . فيمدح الأمير والوزير بالحزم والسياسة كما يمدح الملك بالعزم والرياسة ويمدح القائد بالبأس والشدة والصرامة والنجدة كما قال بشار فى عمرو بن هبيرة حين ولى العراق :

فقل للخليفة ان جئته
نصيحا ولا خير فى المتهم

اذا أيقظتك حروب العدى
فنبه لها عمرا ثم نم

فتى لا ينام على ريبة
ولا يشرب الماء الا بدم

وقول الآخر وهو النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب

لأنك شمس والملوك كواكب
اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويمدح الكاتب بالذكر والفكر والذكاء وصفاء الذهن ، وهو لهذا يستحسن قول الشاعر :

بديهتـــه قبـــل تدبـــيره
اذا جئتـــه فهـــو مستجمع

يـروم الملوك نـدى جعفـر
وهـــم يجمعون ولا يجمع(٦٣)

ويمـدح الكريم بالجود وقـلة المـال • وقـد استحسن قـول الشـاعر :

كسـوب ومتـلاف اذا مـا سـألته
تهـلل واهتـز اهتـزاز المهنـد

متى تأتـه تعشو الى ضـوء نـاره
تجد خير نار عندها خـير موقد(٦٤)

ولا يمـدح الكريم بكثـرة الأولاد فالحيوان الكريم أغـزر انتاجا كمـا قـال أبو اسحاق الغـزى :

بغـاث الطـير أكثرهـا فراخـا
وأم الصـقر مقـلاة نـذور(٦٥)

وهـكذا يمضى أسامة فى بيـان المعـانى والأوصاف وما يلائمها

---

(٦٣) البديـع فى نقـد الشعر ص٢٩٢ .
(٦٤) المصـدر نفسـه ص٢٩١ .
(٦٥) المصـدر نفسـه ص٢٩٠ .

من الأغراض واذا أردت المزيد فارجع الى كتابه البديع فى نقد الشعر تجد الكثير •

٤ ــ وتحدث أيضا ضمن مقاييس نقد المعنى عن ابداع المعانى وابتكارها وعن صحتها وشرفها كما قال : « وليجعل المعنى الشريف فى اللفظ الظريف لئلا يتلف أحدهما الآخر » •

وعد من المعانى المبتكرة قول الشاعر :

وما لبس العشاق ثوبا من الهوى
ولا بدلوا الا الثياب التى أبلى

وما شربوا كأسا من الحب مرة
ولا حلوة الا وشربهم فضلى

وقول أبى تمام :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

لا تنكر واضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس(٦٦)

---

(٦٦) البديع فى نقد الشعر ص١٣٢ ، ص١٣٣ •

فهـذه معـان من اختـراع هـذين الشاعرين وابتكارهما لـم يسبقهما فيهمـا من تقـديم عليهمـا .

واستتبع حديثـه عن ابتكار المعـانى واختراعها حديثه عن حسن الاتبـاع وهـو أن يأتى الأديب ـ شـاعرا أو ناثـرا ـ الى معنى اخترعه غـيره فيحسن اتبـاعه فيـه بحيث يستحقه بوجـه من وجوه الزيادات التى توجب للمتأخر استحقاق معنى المتقـدم امـا باختصار لفظـه أو قصـر نظمـه أو عذوبة قافيته أو بتميـم نقصـه أو تكميل تمـامه أو تحليته بحلية بديعة يحسن بهـا النظـم وتوجب الاستحقاق وقـد أفـرد لكل هـذا مكانا فى بديعـه بأسماء مختلفـة كالاغراب والتوليد والتضمين والحـذو والكشف والتوارد والالتقـاط والنقـل وغيرهـا .

هـكـذلك تحـدث ضمن مقاييس نقـد المعنى عن حسن الأخذ وهـو أن يأخـذ الشـاعر معنى منثـورا فينظمه أو يأخـذ الكاتب معنى منظوما فينثره : « واذا نثـرت منظوما فغـير قوافى شـعره عن قـوافى نثـره .. واذا أخـذت شـعرا خـزد على معنـاه وانقص من لفظـه واحترس ممـا طعـن بـه عليـه فحينئذ تكـون أحـق بـه »(٦٧) .

ويعقـد لذلك بابـا فى بديعه يسميه (باب الحـل والعقـد) ويرى أن هـذا البـاب هـو ما يتفاضل فيـه الشعراء والكتاب وينقل

---

(٦٧) البديـع فى نقـد الشعر ص٢٩٦ .

أمثلة كثيرة لهذا الباب دون أن يبين الفاضل من المفضول تاركا بيان ذلك لذوق القارىء • ويجعل منه ما قاله أمير المؤمنين على - رضى الله عنه - للأشعث بن قيس « انك ان صبرت جرى القضاء عليك وأنت مأجور ، وان جزعت جرى القضاء عليك وأنت مأزور ، وانك ان لم تسل احتسابا سلوت غفلة كما تسلوا البهائم »(٦٨) •

عقده أبو تمام فقال :

أتصبر للبلوى حياء وحسية
فتوجر ، أم تسلو سلو البهائم

وقال عبد الله بن الزبير لما قتل أخوه مصعب : « ان التسليم والسلوة لحزماء الرجال وان الجزع والهلع لربات الحجال » •

عقده أبو تمام فقال :

خلقنا رجالا للتجلد والأسى
وتلك الغوانى للبكا والمآتم

وقال المتنبى :

ولله سر فى علاك وانما
كلام العدا ضرب من الهذيان

نثره الصاحب فقال :

---

(٦٨) البديع فى نقد الشعر ص٢٥٩ .

« ان لله أسرارا فى علاه لا يزال يبديها ويصل أولها بتواليها »(٦٩) .

(ج) مقاييس الشعر الجيد :

كانت الغاية من الأدب عند أسامة هى خلق عمل فنى يمتع القارىء ويحقق الهدف منه ، من أجل ذلك دعا الشعراء الى تهذيب شعرهم وحسن سبكه وتثقيفه بمداومة النظر فيه وتنقيحه مع مراعاة الصنعة الفنية .

وكان أسامة من ا لذين قالوا بمذهب الصنعة فى الأدب فقد كان معجبا بالحطيئة : « لأنه كان يعمل القصيدة فى شهرين ويهذبها فى شهرين » . كما كان معجبا أيضا بزهير : « لأنه كان يعمل القصيدة فى شهرين ويهذبها فى حول ، ولذلك سمى شعره المنقح الحولى »(٧٠) .

وقد وضع أسامة عدة مقاييس لنتاج الشعر الجيد ووصى الشعراء بها . ومنها :

١ ــ وضوح المعانى وتعانقها مع ألفاظها « فان أحسن الشعر ما سبق معناه الى القلب مع لفظه الى السمع »(٧١) .

٢ ــ أن يكون الوزن حسنا تقبله النفس والغريزة غير متكسر ولا مزحف ، كما ينبغى أن تكون قافيته سلسلة المخرج مألوفة . وفى ذلك يقول : « واقصد القوافى الحسنة ولا تقصد القوافى المستهجنة ، فان القوافى حوافر الشعر ، واقصد الأوزان

---

(٦٩) البديع فى نقد الشعر ص٢٦٢ .
(٧٠) انظر البديع فى نقد الشعر ص٢٩٥ .
(٧١) البديع فى نقد الشعر ص٢٩٧ .

الحـلوة دون المهجورة فانهـا أحـلى فى القلوب وأجـول فى المجالس وأعـلق بالأسماع والأفـواه »(٧٢) .

٣ ـ الا يعمـل نظـم ـ ولا نثـر ـ عند الملل فـان الذهن معـه قليـل والنفيس خسيس والخواطـر ينابيع ، فـاذا أرفق بهـا جدت ، واذا عسف عليهـا نزحت(٧٣) .

وبعـــد ..

فهـذه خلاصة ما اجتهدت أن أكتبـه عن أسامة بن منقذ الكنانى ومقاييسه النقـدية للأدب شـعره ونثـره ، وهى المقاييس التى كانت أمامـه حين ينقـد النصوص ، وكـان يتتبعها فى عمليـة النقـد ، وهى مقاييس لهـا قيمتها فى ميـزان النقـد الأدبى الأصيل لا يفـرغ منهـا قارئهـا حتى تتجـلى لـه عبقـرية أسـامة الشاعر النـاقد واضـحة جليـة .

عبقـرية صورتها مؤلفـاته الأدبيـة والنقدية ولاسيما كتـاباه المنـازل والديـار ، والبديـع فى نقـد الشـعر .

وبهـذا الجهـد المتواضع أرجـو أن أكـون قـد وفقت فيمـا قصدت اليـه وهـو الكشف عن بعض ممـا احتـواه تراثنـا النقدى الحـافل من أصـول نقـدية جليلة تعـد من أوفى وأدق ما ابتـكر النقـاد من أصـول لنقـد الأدب ، شـعره ونثـره على السـواء .

وباللـه التوفيـق ،،

دكتـور

محمـود جمعـة أميـن

---

(٧٢) البديـع فى نقـد الشعر ص٢٩٦ .
(٧٣) البديـع فى نقـد الشعر ص٢٩٥ .

أهـم مصـادر البحـث

١ ــ البديع فى نقـد الشـعر لأسامة بن منقـذ ، طبع مصطفى البابى الحـلبى سنة ١٩٦٠ م .

٢ ــ البيـان والتبيين للجاحظ ، مكتبة الخانجى بالقاهـرة ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٥ سنة ١٩٨٥ .

٣ ــ خـريدة القصـر للعمـاد الأصفهانى ، دار نهضة مصـر سنة ١٩٦٤ ، تحقيق عمـر الدسوقى ، على عبد العظيـم .

٤ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، اعـداد وتحرير ابراهيم زكى خورشيد كتـاب الشعب بدون تاريخ .

٥ ــ دلائل الاعجـاز لعبد القاهـر الجرجانى ، مطبعة المنـار بمصر سـنة ١٣٣١ هـ .

٦ ــ ديوان أسامة بن منقـذ ، تحقيق وتقديم الدكتورين : أحمد أحمد بدوى ، حامد عبد المجيد ، طبـع بيروت سنة ١٩٨٣ م .

٧ ــ الروضتين لأبى شـامة ، طبع المؤسسة المصرية للتأليف والطباعة والترجمـة سـنة ١٩٦٢ م .

٨ ــ الـكامل فى التـاريخ لعـز الدين بن الأثـير ، المجلد الحادى عشـر ، دار صـادر بيروت بدون تاريخ .

٩ ــ المثـل السـائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير . نهضة مصـر سنة ١٩٧٣ م ، تحقيق الحـوفى وطبانة .

١٠ــ معجـــم الأدبـــاء لياقوت الحموى ، مطبوعات دار المـــأمون ، تحقيق أحمـــد فريد رفاعى ، بدون تاريخ •

١١ــ المنـــازل والديـــار لأسامة بن منقـــذ ، طبـــع المجلس الأعـــلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٦٨ م ، تحقيق مصطفى حجـــازى •

١٢ــ النقـــد المنهجى عند العـــرب للدكتور : محمد منـــدور ، مطبعة نهضة مصـــر سنة ١٩٤٨ م •

١٣ــ وفيـــات الأعيـــان لابن جلكان ، دار صادر بيروت ، تحقيـــق احسان عبـــاس بدون تاريخ •